

سليمان (ع) والهدد ومملكة سبأ



أُعطى النبيّ سليمان ما لم يعط غيره من الأنبياء من الملك والسلطان، فهو أمير الإنس والجن، وله السيطرة التامة على هذه المخلوقات، حيث استجاب [] دعاءه حينما قال: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْزِلْ عَلَيَّ لَاحِدٌ مِنْهُ بِعَدِّي إِنْ لَكِ أَنْزِلُ الْوَهَّابُ) (ص/ 35). فقد سخر [] له الجن والطير، وحتى الرياح كانت تجري حيثما أراد: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ) (ص/ 36-37). (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّاغُوتِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) (النمل/ 17).

فيما هو يستعرض جيشه المتكون من هذه الأصناف والأجناس لم ير الهدد بين هذه الصفوف المحتشدة التي جاءت في استعراض الملك المهيّب لجيوشه، وتفقد الغائب والحاضر فلا بدّ من تفقد الرعية حتى أمثال الهدد وبحجمه: (وَتَفَقَّحَ الطَّاغُوتُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ هُدًى أَمْ كَآنَ مِنَ الْغَائِبِينَ)؟ (النمل/ 20).

صوّب نظره في جيوشه الواقفة أمامه، فلم يشاهد الهدد، تعجب من عدم حضوره وقال:

أين الهدد؟!، لم لا أراه؟!، هل هو بينكم أم أنّه تغيب عن الحضور؟. ثمّ عرف أنّ الهدد لم يكن بين هذه الجموع الواقفة في الاستعراض.

هنا صدر التهديد من سليمان للهدد متدرجاً في العقوبة: (لَأَعَذِّبَنَّاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَاهُ أَوْ لَأَيَّا تَزِيدَنَّيَ بِرُسُلَاتِي مُبِينًا) (النمل/ 21). أنّّه تهديد بالعقوبة قبل أن يحضر المتهم الغائب ويدلي بما لديه من عذر، لذلك كان قرار الحكم متدرجاً ومعلقاً على عدم وجود السبب العقلائي، أوّلاً العذاب الشديد، ثمّ الذبح، هذا إذا لم يكن لديه العذر الذي ينجيه من العقوبة. تدرج في المؤاخذة بحسب الذنب الذي يأتي به صاحبه، الأقل درجة ثمّ الأعلى؛ أوّلاً التعذيب بسبب الغياب بدون مبرر، ثمّ الذبح إن علم منه ما يكره، أو أنّّه يستطيع فكّ رقبته من الذبح وبدنه من التعذيب بعذر سديد، لكن كيف يعذب سليمان الهدد وبأية طريقة؟ قيل أنّّه يحسبه مع ضده من الطيور فيضعه في قفص واحد مع نده، وقد قيل إنّ أضيّق السجون معاشرة هو حبس الطيور المتضادة في قفص واحد. أو يبعده من خدمته، أو يلزمه بخدمة أقرانه الاضداد، أو يأمر بنتف ريشه، أو يلقي به في الحر،

أو يفرق بينه وبين إلفه.

وسرعان ما عاد الطير وهو منتفش لا يخاف التهديد الذي صدر بحقه، وألقى ما في جعبته من أنباء مهمة جداً، وهذه الأنباء لا يعلمها سليمان على رغم ملكه العظيم وسلطته الواسعة حيث قال: (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) (النمل/ 22). سليمان الذي دانت له الريح، وحشرت الجن والأنس والطير لم يطلع على ما جاء به الهدهد، لم يدر كل ما يدور حوله، والهدهد يقول جئتكم من سبأ نبأ حق لا يشوبه باطل الكذب.

إنَّ المعلومة التي جاء بها الهدهد خطيرة جداً، لقد عثر في جملة تطوافه في الأرض، وطيرانه في الجو بمشاهدة صحيحة عن جماعة لا تسجد لله ولا تعبد، بل تسجد للشمس: (إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّتْهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) (النمل/ 23-24). وهذا يدلنا على أنَّ الهدهد يعبد الله، ويستغرب أن يرى من يعبد غيره، ويعتبر ذلك ذنباً عظيماً، وفساداً خطيراً.

هناك جماعة تعبد الشمس، وتتأمر عليهم امرأة، هذه المرأة على ما يذكر التاريخ تدعى بلقيس بنت شراحيل، وقد أوتيت من الثراء والأبهة ووسائل الحرب والسلاح وآلات القتال الشيء الكثير الذي لا يوجد مثله إلا في الممالك العظمى، وإنَّ لها سربيراً عظيماً تجلس عليه مرصعاً بالذهب وأنواع الجواهر في قصر منيف... ثمَّ راج الهدهد يبين معتقدهم وطريقة عبادتهم، وهي عبادة الشمس من دون الله، ثمَّ يردف بتحسر وتعجب: (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...) (النمل/ 25)، أي المخبوء والمستور، ويعلم الخفي من أفعال العباد... والطريف أنَّ من خصائص الهدهد هو أنَّه مولع بالبحث عن المخبوء لطعامه.

يلاحظ أنَّ في حكومة سليمان حرية تعبير وديمقراطية سليمة، ويحق للآخر أن يقول كلمته أمام القائد، ويبيد رأيه وإن كان بمستوى الهدهد. وقد كان صريحاً مع الحاكم المتمكن حيث قال: أنا أعرف ما لا تعرفه أنت، حيث قد تسلت وعرفت أموراً عجيبه في بلدة سبأ وهي عبادة ما دون الله.

ماذا صنع سليمان حين سمع عذر الهدهد؟ قال: (سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُذَّبْتَ مِنْ أَكَادِرِ بَيْنٍ) (النمل/ 27).

سوف نختبرك، هل أنت كاذب أم صادق؟ ثمَّ قال: (إِذْ هَبْ بَرَكَاتِنَا بِهَذَا فَأُلْهِمْهُ إِِلَاحَهُمْ) (النمل/ 28)، خذ هذه الرسالة وتوجه بها إليهم ثمَّ انظر ماذا يقررون بشأنها، وماذا تكون ردة فعلهم، والكتاب هو: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ سُلَيْمَانَ وَآلَتُونِي مُسْلِمِينَ) (النمل/ 30-31)، قرار صارم ودقيق يبدأ باسم الله، أمر بالتسليم والإقرار لسليمان، وفيه تلميح لاستعمال القوة مع هؤلاء المشركين.

ذهب الهدهد بالكتاب، ورمى به في قصر الملكة بحيث تكون هي من يطلع عليه مباشرة.

ماذا صنعت الملكة حين رأت الكتاب؟ لقد وصفته لقومها بالكتاب الكريم، ولعل ذلك لأنَّ الكتاب ابتداءً باسم الله، أو أنَّه من سليمان الملك المعروف، ثمَّ قامت باستشارة قومها لأنها لا تريد أن تتفرد بالقرار، فكان جوابهم: نحن أصحاب قوة وبأس شديد، لكن أنت من يملك الأمر فانظري، فقالت: (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (النمل/ 34)، إذن لا فائدة من قوتهم أمام الملوك، لأنَّ الملوك إذا احتلوا بلاداً أفسدوها، وأسروا أهلها، واسترقوهم... لكنها ستختبر هذا الملك فترسل إليه بهدية، وسوف تعرف طبيعة هذا الملك من طبيعة تعامله مع الهدية الثمينة، إلا أنَّ سليمان حين رأى الهدية غضب وقال: (أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) (النمل/ 36). اتعطونني مالاً؟، فما أعطاني الله خير مما أعطاكم، خذوا هديتكم هذه، قالها بغضب وأمر جنوده بالتهيؤ لغزو سبأ.

حمل الوفد الهدية إلى الملكة مردودة خائبة.

إلا أنَّه أراد أن يكون عرش الملكة في قصره قبل أن يأتي هؤلاء مسلمين، وتكون هذه المفاجأة لهم بمثابة المعجزة على صدق دعوته ونبوته، طلب أن يحضر العرش، وهنا تدخل عفريت من الجن وقال:

(أَنزَلْنَا آتِيكَ بِهِ فَقَبِلْ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) (النمل/ 39)، إلا أن الذي عنده علم من الكتاب قال: (أَنزَلْنَا آتِيكَ بِهِ فَقَبِلْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْكَ طَرَفُكَ...) (النمل/ 40)، وجيء بالعرش، فلما رآه سجد سجدًا وشكرا وقال: (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) إنَّه يستشعر النعمة بهذا النحو، إنَّه ابتلاء ضخم مخيف معجز يحتاج إلى يقظة ليجتازه، ويحتاج إلى عون من الله ليَقْوَى عليه، ويحتاج إلى النعمة والشعور بفضل المنعم ليعرف الله منه هذا الشعور، ثم يقول: (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا نَظْمِي لَهُ مَا يَشْكُرُ لِنَفْضِهِ وَوَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل/ 40)، لأنَّه لا ينفعه شكر من شكره، ولا يضره جود من جوده.

ثم جيئ ببلقيس ف قيل لها ادخلي القصر، عندها لاحظت عرشها وقد تغير شيء منه لئلا تعرفه حين تراه، ثم سألوها أهكذا كان عرشك؟، قالت كأنَّه هو، ولم تجزم بذلك لأنَّه قد يكون عرشا آخر يشبه عرشها.

ثم كانت المفاجأة الأخرى عندما قيل لها ادخلي الصرح أي القصر، فحسبته مبنياً على الماء، وكشفت عن ساقها، أي رفعت ثيابها إلى الأعلى حتى لا تتبلل بالماء، لأنَّ بلاط البهو من زجاج شفاف وتحت ماء جارٍ فيه صنوف الأسماك، فحسبت أن هذه لجة فكشفت عن ساقها، ف قيل لها: هذا ليس ماء، إنَّه (صَرَحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ) (النمل/ 44)، زجاج يجري من تحت الماء. لقد أيقنت مما رأت أن دين سليمان هو الحق. وإنَّها قد ظلمت نفسها بكفرها وعبادتها للشمس فقالت: (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (النمل/ 44).